دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	معلم الفقه الاسلامي وطالب الفقه الشرعي الواقع والطموح
المصدر:	بحوث المؤتمر الثاني: تدريس الفقه الإسلامي في الجامعات الواقع والطموح
الناشر:	جامعة الزرقاء الأهلية - كلية الشريعة
المؤلف الرئيسي:	الأشقر، عمر سليمان عبدالله
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1999
مكان انعقاد المؤتمر:	عمان
الهيئة المسؤولة:	جامعة الزرقاء الأهلية
الشهر:	ربيع الثاني / أغسطس
الصفحات:	440 - 469
رقم MD:	38438
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo, EduSearch
مواضيع:	معلمو التربية الاسلامية، العلوم الشرعية، الفقه الاسلامي، أصول الفقه، تدريس الفقه الاسلامي، التربية الاسلامية، الطلاب والمعلمون، السور والآيات، الأهداف التربوية، الفقهاء المسلمون، المناهج، التحصيل الدراسي، القرآن، السنة النبوية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/38438

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

معلم الفقه الإسلامي وطالب الفقه الشرعي
الواقع والطموح

أ.د. عمر سليمان الأشقر.
كلية الشريعة – جامعة الزرقاء الأهلية

تقديم:

الحمد لله الذي أنار بأنوار الوحي قلوب من اهتدى إليه من خلقه، والصلاة والسلام على من بعثه ربه على حين فترة من الرسل، فأقام به الملة العوجاء، وأزال به ظلمات الكفر والشرك، واهتدى به الحيارى في دروب السالكين إلى الله، وعلى آله الأخيار، وصحبه الأطهار الذين زكت نفوسهم بالحق الذي تلقوه من رسولهم، فأصبحوا به أعلام الهدى، ونجوم الدجى، وعلى من اهتدى بهديهم، وسار مسارهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الموضوع الذي عهد الي بتجليته والحديث عنه في هذا المؤتمر هومعلم الفقه الإسلامي، وطالب الفقه الشرعي: الواقع والطموح، وقد حددت الورقة المفصلة لمحاور المؤتمر عناصر البحث بأمرين:

الأول: الصفات التي يجب أن يتحلى بها كل منهما.

الثاني: العيوب والنقائص التي يجب أن يتخلى عنها كل منهما، وسأعقد لتناول هذا الموضوع ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تحديد المراد بعلم الفقه وبيان المراد بمعلم الفقه وطالبه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المراد بعلم الفقه.

المطلب الثاني: بيان المراد بمعلم الفقه وطالبه.

المطلب الثالث: المقدار الذي ينبغي للفقيه تحصيله من العلوم.

المبحث الثاني: الصفات التي يتصف بها عالم الفقه وطالبه.

المبحث الثالث: الصفات التي يجب أن يتخلى عنها عالم الفقه وطالبه.

المبحث الأول

تحديد المراد بعلم الفقه وبيان المراد بمعلم الفقه وطالبه

المطلب الأول: تحديد المراد بعلم الفقه

علم الفقه الإسلامي هوالعلم الذي يضم الأحكام العملية المستمدة من الأدلة التفصيلية، والمراد بالأدلة التفصيلية أدلة الكتاب والسنة، وجملة هذه الأحكام تدعى في المصطلح المعاصر بالقانون.

والأحكام العملية التي تحكم الفرد والأسرة والمجتمع جاءت بها كل الشرائع التي أنزلها الله، بل إن بعض النصوص تجعل الشريعة هي جملة هذه الأحكام التي تضمنها وحي السماء، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وعلى ذلك فإن الشرائع التي أنزلها الله على رسله وأنبيائه قد تختلف فيما بينها، فيحرم الله أمراً في شريعة، ويبيحه في أخرى، ويحل أمراً في شريعة ويحرمه في أخرى، أما دين الأنبياء القائم على الإيمان بالله وحده، والإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر فهوواحد لا يختلف من رسول إلى رسول.

ومن هنا كانت التوراة شريعة والإنجيل شريعة، والقرآن شريعة، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وكل أمة ملزمة بأن تحكم بالشريعة التي جاءها من عند الله، ولا يجوز لها أن تخرج عنها إلا إذا نسخها الله بشريعة أخرى، كما نسخ الله بشريعة القرآن الشرائع السابقة. فاليهود ملزمون بالحكم بالتوراة، وقد وكل الله هذا المهمة لأنبياء بني إسرائيل، ثم الأحبار والرهبان، والأحبار هم علماء اليهود، والرهبان علماء النصارى، وقد حكم الله بكفر من لم يحكم بشريعة التوراة من بني إسرائيل. وبين بعض الأحكام التي تضمنتها شريعة التوراة {المائدة:٤٥}

ثم أثنى الله على الإنجيل الذي أنزله على عيسى، وأمر أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه، وحكم بفسق من لم يحكم به منهم. ثم ذكر الحق تبارك

وتعالى إنزال القرآن على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم آمراً إياه بالحكم به دون غيره ثم كرر- تبارك وتعالى- في الآية التالية أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالحكم بينهم بما أنزله إليه معرضاً عن الحكم بأهواء الرجال سواء أكانت قانوناً أورأياً أوشريعة منسوخة وقرر في الآية التالية أن الذين يريدون الحكم بغير ما أنزل الله إنما يريدون الحكم بحكم الجاهلية.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

[المائدة: ٤٤-٥٠].

المطلب الثاني: المراد بعالم الفقه الإسلامي

وقد أطلت في إيراد النصوص السابقة لنعلم النوعية التي نريدها في معلمي الفقه الإسلامي وطلبه الفقه الشرعي، فالمراد بهم حملة هذه الشريعة المباركة، الذين يقومون على تعلم هذه الشريعة وتعليمها للناس، كما يقومون على تحكيمها في أنفسهم والناس من حولهم. ولقد كانت هذه هي مهمة الرسل والأنبياء تجاه الشرائع من بعدهم، وكانت تلك مهمة الأحبار والرهبان في بني إسرائيل من بعد الأنبياء تجاه شريعة التوراة، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم "أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي قام نبي". لقد توقف إرسال الأنبياء في بني إسرائيل، وفسد الأحبار والرهبان الذين كانوا يقومون على شريعة التوراة، فكان ذلك مؤذناً بزوال أفضلية تلك الأمة، ونسخ شريعتها، ومجيء هذه الشريعة المباركة. وقد حدثنا الله عن الفساد الذي أصاب فقهاء اليهود والنصارى بقوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤].

لقد أصبح فقهاء اليهود وعبّاد النصارى يسعون وراء المتاع الدنيوي الزائل، وفرطوا في حفظ الشريعة المنزلة، واهتموا بجمع الأموال التي يأخذونها من الناس بطرق حرمتها عليهم شريعتهم، فزلت أقدامهم، وفقدوا خصائصهم، وقد حدثنا التاريخ عن الجرائم التي ارتكبوها بحق دينهم، وكيف كانوا يبيعون الجنة، ويحصلون على الأموال الطائلة من بيعهم ما يسمى بصكوك الغفران، وكيف كانوا يفرضون الضرائب على الناس للأديرة والكنائس، ومن شاء أن يطلع على كنوز هؤلاء فليذهب إلى الفاتيكان، وليرى بعض تلك الكنوز المعروضة في مبنى تابع له، مما كان يملكه البابوات.

ولم يكتف الأحبار والرهبان بهذا، ولكنهم نصبوا أنفسهم أرباباً يحلون ويحرمون من عند أنفسهم، بعد أن كانت مهمتهم تحكيم شريعة الله "

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

لقد حرف اليهود والنصارى شريعة التوراة والإنجيل، وتركوا المهمة العظمى التي وكلها الله إليهم، فكان ذلك مؤذناً بزوال شريعتهم، ومجيء هذه الشريعة المباركة شريعة القرآن.

العلماء الأوائل في هذه الأمة.

المعلم الأول في هذه الأمة هورسولنا صلى الله عليه وسلم، وأساس العلم الذي تعلمه هوالوحي الإلهي الرباني المنزل من عند الله تبارك وتعالى، وهذه أعظم خاصية لهذا العلم، وقد كان أكثر هذا العلم يأتيه عن طريق جبريل عليه السلام، يتمثل له جبريل عليه السلام في صورة رجل فيكلمه، وكان هذا أهون الطرق على الرسول صلى الله عليه وسلم التي يتلقى بها الوحي، وكان أحياناً يكلمه من غير أن يراه، وكان هذا شديداً على الرسول صلى الله عليه وسلم، لكونه يتصل به بصفته الملائكية، ورآه الرسول صلى الله عليه وسلم على صورته التي خلقه الله عليها عياناً مرتين وكان أحياناً يقذف الحق والعلم في قلب الرسول من غير رؤية ولا كلام، وفي الإسراء كلمه ربه كما كلم موسى عليه السلام.

روي البخاري في صحيحه عن عائشة أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحياناً مثل صلصلة الجرس[1]، وهوأشده علي، فيفصم عني[2]، وقد وعيت عنه ما قاله، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي عنه ما يقول".

---

[1] شبه صوت الملك بالوحي بصوت صلصلة الجرس، وهوصوت وقوع الحديد بعضه على بعض، والجرس: الجلجل الذي يعلق في رؤوس الدواب.

[2] أي يقلع عني ويذهب.

قالت عائشة رضي الله عنها: "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً"[1].

وقد بين ابن حجر رحمه الله أن الوحي لا ينحصر في هاتين الحالتين، فالوحي كان يأتي كدوي النحل، ومنه النفث في الروع، والالهام، والرؤيا الصالحة، والتكليم ليلة الإسراء من غير واسطة، ومجيء جبريل في صورته التي خلقها الله عليها له ستمائة جناح [2].

وقد جاءت النصوص صريحة بأن العلم الذي أوتيه رسولنا صلى الله عليه وسلم هومن تعليم الله ربنا [3].

وقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليم الهدى والعلم الذي تلقاه من ربه إلى أصحابه، وهذه إحدى المهمات العظام التي ناطها الله برسوله قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢]. وتلقى الصحابة هذا العلم مستشعرين عظمته، وثقل المهمة التي يتحملونها عن رسولهم صلى الله عليه وسلم.

وتعليم الرسول صلى الله عليه وسلم ليس قصراً على أصحابه، فتعليمه ممتد في الزمان إلى قيام الساعة، لذلك جاء بعد الآية السابقة من سورة الجمعة قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة: ٣].

إن الله شاء أن لا يبعث بعد محمد نبياً ولا رسولاً، فهوالنبي الخاتم، وهذا يقضي أن يبقى الوحي الذي جاء به محفوظاً إلى قيام الساعة، وقد تعهد الله بحفظ الوحي الذي أنزله من غير تغيير ولا تبديل، ولقد حمل الصحابة والعلماء الذي جاؤوا من بعدهم آيات الكتاب وأحاديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم في صدورهم.

---

[1] رواه البخاري في صحيحه. انظره بشرحه فتح الباري: ٢٤/١ ورقمه:٢.

[2] فتح الباري: ٢٦/١.

[3] انظر سورة النساء: ١١٣، سورة الرحمن: ٢،١، سورة آل عمران: ٣ وغيرها.

و لم يكن حفظ القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم قصراً على حفظ الصدور، بل بقي محفوظاً في الكتب، وقد قام الصحابة الكرام بتدوين القرآن تدويناً أنهى كل خلاف في نصوصه، واتفقوا على النسخة التي دونت بأمر عثمان، وهذه اعتمدوا فيها على النسخة التي دونها أبوبكر.

وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم حفظت بجهود هائلة، قام بها العدول الثقات الحفظة من هذه الأمة، فبقي علم رسول الله صلى الله عليه وسلم محفوظاً، وإن كانت تصفيته تماماً لم تكتمل في كتاب واحد أجمع عليه المسلمون، ولكن قسماً كبيراً منه هوموضع اتفاق بين الأمة، فكل حديث صحيح حكم بصحته عالم و لم يطعن فيه طاعن من أهل العلم المعتدّ بهم هوحديث صحيح، وهذا يشمل ألوفاً كثيرة، ومن هذه أحاديث البخاري ومسلم كلها إلا قليلاً منها مما تكلم فيه أهل العلم، ومثلها بقية الأحاديث التي صححها العلماء في بقية كتب الحديث كالسنن لأبي داود الترمذي والنسائي وابن ماجه ومسند أحمد والموطأ وغيرها و لم يطعن في صحتها أحد علماء الجرح والتعديل كثيرة.

وقد تكفل الله بحفظ الوحي الذي أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه سيبقى في كل عصر وجيل طائفة ظاهرة على هذا الحق الذي أنزله وكان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، وفي ذلك يقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك".

ووجود طائفة في كل عصر تحمل الحق الذي جاء من عند الله وتفقّهه، وتفقّهه الناس وتعلمهم إياه له أثر كبير في إبقاء شعلة الحق متوهجة مشتعلة، فإن كثيراً من الناس لا يرون الحق ظاهراً إلا إذا تمثل هذا الحق في واقع مشهود، فبقاء أقوام ظاهرة على هذا الحق، هومن تمام حفظ الله للوحي المنزل.

المطلب الثالث: المقدار الذي ينبغي للفقيه تحصيله من العلوم

يمكن أن نحدد المقدار الذي ينبغي أن يحصله طالب العلم ليصبح عالماً بالفقه بما يأتي:

أولاً: دراسة علوم الفقه، وفي مقدمتها علم الكتاب والسنة، وخاصة نصوص الأحكام، وهذه النصوص مبثوثة في سور القرآن، ومنثورة في دواوين الأحاديث، وقد جمع بعض العلماء هذه النصوص، فهناك مئات من المدونات في آيات الأحكام، والمطبوع منها لا يزيد على العشرين كتاباً، منها أحكام القرآن لابن العربي، وأحكام القرآن للجصاص، وأحكام القرآن للكيا الهراسي، وأفضلها أحكام القرآن للقرطبي المسمى بالجامع لأحكام القرآن، فإنه فسر القرآن كله، وخص آيات الحكام بمزيد عناية ونظر، وهوأقرب إلى الأنصاف وأبعد من العصبية.

وآيات الأحكام في المتوسط خمسمائة آية، وقد يبلغ بها بعض أهل العلم تسعمائة آية، والمقصرون يعدونها مائتي آية، ومن زاد في عددها جعل كل آية ولو لم تتضمن إلا حكماً واحداً من آيات الأحكام، ومن قصر في عدها لم يدخل فيها إلا الآيات المساقة لبيان الأحكام.

وأحاديث الأحكام كثيرة، والمؤلفات فيها متفاوتة في حجمها، فمنها الصغير كعمدة الأحكام لعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي، وشرحه ابن دقيق العيد في كتابه إحكام الأحكام، ومنها المتوسط كبلوغ المرام لابن حجر العسقلاني وشرحه الصنعاني في كتابه سبل السلام، ومنها الكبير كمنتقى الأخبار لمجد الدين ابن تيميه جد شيخ الإسلام ابن تيميه، وشرحه الشوكاني في كتابه نيل الأوطار.

ثانياً: علم أصول الفقه، وعلم أصول الفقه هومجموعة القواعد العامة التي تستخدم في استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية. "وهذا العلم يبين لنا ما هي طبيعة الأحكام الشرعية بصفتها الإجمالية، وما خصائص كل نوع من الأحكام، وكيفية ارتباط بعضه ببعض، ويبين لنا كيف نستنبط الحكم من دليله،

كاستنباطه صراحة من نص الآية القرآنية، أوالحديث النبوي، أومن مفهومهما، أومن القياس عليهما أوبغير ذلك، وكيف نصنع إذا كان الحديث فعلا نبويا.

ويبين لنا من الشخص الذي يستطيع الاستنباط، وما هي مؤهلاته ويبين لنا كيف يصنع المجتهد إذا تعارضت عنده الأدلة من الجمع بينها إذا أمكن، وتقديم الخاص على العام، ومتى يجوز اعتبار بعضها ناسخا لبعض.

وقد سمي علم "أصول الفقه" بهذا الاسم، لأن قواعده "أصول" أي أسس يبنى عليها علم الفقه، ومن هنا سمي علم الفقه أيضا "علم الفروع" لأنه يتفرع عن علم الأصول، "وعلم الأدلة".

وسمي علم "أصول الفقه" أيضا علم "الاجتهاد"، لأنه هوالذي يفتح باب الاجتهاد، ويذلل السبيل للعلماء ليستنبطوا الأحكام الفرعية والفتاوى الشرعية في الأمور المستجدة على هدى وبصيرة، ويبين لهم كيفية الترجيح عند تعارض الأدلة"[1].

ثالثا: العلم بالعربية:

لا بد للفقيه حامل هذه الشريعة من أن يكون عالما بالعربية، فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب[2].

يقول الشافعي رحمه الله تعالى: "من أراد تفهم القرآن فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة"[3].

ويقول أيضا: أنزل القرآن على معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها، وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به غير الظاهر، وكل ذلك يعرف من أول الكلام أووسطه أوآخره، وتتكلم بالكلام

---

[1] الواضح في أصول الفقه. محمد سليمان الأشقر. ص٩.

[2] سورة يوسف:٢، سورة الشعراء:١٩٥-١٩٨، طه:١١٣، فصلت:٣.

[3] الموافقات:٢/١٠٢.

ينبىء أوله عن آخره أوآخره عن أوله، وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة وتسمي الشيء الواحد بأسماء كثيرة، والأشياء الكثيرة بأسم واحد، وكل هذا معروف عندها لا ترتاب في شيء منه هي، ولا من تعلق بعلم كلامها، فإذا كان كذلك فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب، فكما أن لسان بعض الأعاجم لا يمكن أن يفهم من جهة لسان العرب كذلك لا يمكن أن يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم لاختلاف الأوضاع والأساليب"[1].

وعلوم العربية التي ينبغي لطالب علم الفقه أن يكون بصيرا بها هي النحووالصرف واللغة والمعاني والبيان.

القدر المحتاج إليه من علوم العربية.

والقدر المحتاج إليه من علوم العربية كما يقول الغزالي: "الذي يفهم به خطاب العرب وعاداتها في الاستعمال إلى حد يميز بين صريح الكلام وظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده ونصه ولحنه ومفهومه"[2].

ولا يشترط الغزالي: "أن يبلغ درجة الخليل والمبرد، وأن يعرف جميع اللغة، ويتعمق في النحو، بل القدر الذي يتعلق بالكتاب والسنة، ويستولي على مواقع الخطاب، ودرك حقائق المقاصد منه"[3].

وهناك مباحث في علوم العربية لا يحتاج إليها مثل كلامهم في عامل المستثنى ما هو، و لم أرتفع الفاعل، وانتصب المفعول، مما لم يعرفه العرب، وأكثر مباحث العربية التي يحتاج إليها المجتهد موجودة في أصول الفقه، ولذا لم يشترط أبوالحسين

---

[1] الموافقات:٢/١٠٣.

[2] المستصفى:١/٣٢٥.

[3] المصدر السابق.

البصري بعد معرفة الكتاب والسنة إلا أصول الفقه، لأن أهل الأصول قد نقلوا عن العربية والمعاني والبيان ما يحتاج إليه المجتهد"[1].

المقدار الذي يحتاج إليه من كتب الفقه:

الفقه هوفهم نصوص الكتاب والسنة، وقد بذل الصحابة ومن سار مسارهم وعلى أثرهم جهدهم كي يفقهوا عن الله وعن رسول الله مرادهما فيما وردت به النصوص.

ومع امتداد الزمن وكثرة أهل العلم عظمت الثروة الفقهية التي بذلت في تحقيق فقه النصوص، وبيان دلالتها على الأحكام، وعندما دونت العلوم كثرت المؤلفات في علم الفقه، وخرج بعضها عن المسار السوي، فبعض الفقهاء أصبح فقههم المدون كلاماً مجرداً في الأحكام، دوّن فيه الأحكام التي رآها صواباً، أوأخذها عن إمامه، فلما جمد الفقهاء على أقوال أئمتهم تركوا فقه الكتاب والسنة، وأصبح همهم تحقيق مذهب إمامهم، وبدل أن تكون النصوص هي محور الدراسة أصبح قول الإمام وعلماء المذهب هومحور الدراسة.

ان النهضة الفقهية التي نتطلع إلى تحقيقها تقوم على الأستعانة بفقه الأئمة على فقه نصوص الكتاب والسنة، وقد نقلت لنا كتب التفسير وشروح الحديث أقوال العلماء الأعلام في فقههم لنصوص الكتاب والسنة، وكيف استخلصوا منهما الأحكام، وألف كثير من الأئمة في الفقه الإسلامي على هذا النمط مثل الإمام الشافعي في كتابه الأم، فهومن أعظم المؤلفات في الفقه، وفقهه فيه هوجهد مبذول بقوة لفقه نصوص الكتاب والسنة، ومن المؤلفات المدونة على هذا النحوكتاب الاستذكار لابن عبد البر، والمؤلفات التي تعنى بالدليل كثيرة مثل كتاب المغني لابن قدامة، والمحلى لابن حزم، والمجموع للنووي، وفي فتح الباري لابن حجر، فقه كثير وأصيل يتجه مباشرة إلى فقه نصوص الأحاديث، ويورد المسائل ويورد أدلتها من الكتاب والسنة .

---

[1] ارشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد للصنعاني مجموعة الرسائل المنيرية: ٢٣/١.

المبحث الثاني
الصفات التي يتصف بها عالم الفقه

سأتناول في هذا المبحث الصفات التي تكوّن الفقيه العالم بالشريعة، وترسم مسار طالب علم الفقه .

الصفة الأولى: إيجاد الدافع إلى تعلم العلم وتعليمه

لا يندفع طالب العلم إلى طلب العلم عموماً وعلم الفقه خصوصاً إلا إذا وجد لديه الدافع الذي يدفع الإنسان إلى تحصيله، وكلما قوي الدافع واشتد عظم هم طالب العلم. وقد أقام الشارع الدواعي التي كانت ولا تزال تدفع إلى تعلم العلم وتعليمه، وعلى المعلمين أن يغرسوا هذه الدوافع في نفوس طلبة العلم، ويعنوا بتثبيتها حتى تستقر وتعظم في النفوس، فلا يرى طالب العلم وعالمه أحداً أفضل منه، ولوحيزت له الدنيا.

وسأذكر هنا جملة مما نصبه الشارع دافعا إلى طلب العلم وتعليمه .

١. العلماء ورثة الأنبياء

طلبة العلم الشرعي وعلماؤه ورثة الأنبياء حقاً وصدقاً، روى أحمد والترمذي وأبوداود وابن ماجه والدرامي عن أبي الدرداء أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :" وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ واسع "[1] .

٢- طلب العلم طريق إلى الجنة

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ومن سلك طريقاً يلتمس فيها علماً سهل الله له بها طريقاً إلى الجنة" .

وفي مسند أحمد والترمذي وأبي داود وابن ماجه عن كثير بن قيس قال : كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق، فجاء رجل فقال : يا أبا الدرداء، إني

---

[1] مشكاة المصابيح : ٧٤/١ وحكم عليه الألباني بالحسن .

جئتك من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ما جئت لحاجة، فقال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة ... "[1] .

٣- رعاية الله العلماء وطلبة العلم وعنايته بهم :

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه "[2].

إن الحديث يجعل مدارس العلم واحة تقي من أوجاع الحياة وهمومها النفسية والقلبية، ففي بيوت الله حيث يجتمع طلبة العلم لإستماع دروس العلم القائمة على تلاوة آيات الكتاب، ثم التفقه بما فيها، يحصل المجتمعون على جلسات إيمانية، تزكي النفوس، وتهذب الأرواح، وتفتح العقول، لقد وعد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يترل الله سكينته على هؤلاء الدارسين، وأن تغشاهم رحمته، والرحمة إذا نزلت على العباد وجدوا لها في النفس حلاوة، وإحاطة الملائكة بأهل العلم في بيوت الله يعني مباركتهم المجلس، وطرد الشياطين، وقمة ما يناله، أهل العلم أن يذكرهم الله في الملأ الأعلى، وحسبك بذلك فضلاً .

٤- استغفار كل من في السموات والأرض للعلماء.

أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن العلماء يستغفر لهم كل من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان السابحة في البحار، وحسبك بذلك أجراً، وكفى به فضلاً .

---

[1] مشكاة المصابيح : ٧١/١

[2] مشكاة المصابيح : ٧١/١ ورقم الحديث : ٢٠٤

روى أحمد وأبوداود والترمذي وغيرهم عن أبي الدرداء أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " إن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء "[1].

٥- رفع الله قدر العلماء ومنازلهم في الدنيا والآخرة :

قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] لقد فاضل الله بين خلقه، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، وترتفع درجاتهم عنده بأمور كثيرة، فبالإيمان ترتفع منازل العباد على أهل الكفر والفساد، والمؤمنون يتفاضلون بالعلم والأعمال الصالحة، وأفضل المؤمنين الأنبياء، والانبياء يتفاضلون عند الله، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] «أي في الثواب في الآخرة والكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم، وقال ابن مسعود : مدح الله العلماء في هذه الآية . والمعنى أن الله يرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا و لم يؤتوا العلم درجات، أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به " [2] .

وأورد القرطبي [3]، أيضاً ما رواه مسلم في صحيحه أن نافع بن عبد الحارث عامل عمر على مكة لقي عمر بعسفان، فقال له عمر :" من استعملت على أهل الوادي ؟ فقال : ابن أبزى . فقال : ومن ابن أبزى ؟ قال : مولى من موالينا

---

[1] مشكاة المصابيح : ٧٤/١ ورقمه : ٢١٢

[2] تفسير القرطبي: ٢٩٩/١٧.

[3] تفسير القرطبي: ٣٠٠/١٧.

.قال : فاستخلفت عليهم مولى !! قال : إنه لقارئ لكتاب الله، وإنه عالم بالفرائض . قال عمر: أما أن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال :" إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين ".

وهذه الرفعة التي خص الله بها العلماء أمر بديهي لأن لهم من الفضل ما اقتضى رفعة درجتهم، فلا يجوز المساواة بين العالم والجاهل، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ٩].

وقد جاءت نصوص كثيرة تصور الرفعة والدرجات التي يحظى بها العلماء بسبب علمهم، فمن ذلك ما رواه أحمد والترمذي وأبوداود وابن ماجه والدرامي عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب"[1].

وعن الحسن مرسلا، قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن رجلين كانا في بني إسرائيل: أحدهم كان عالماً يصلي المكتوبة، ثم يجلس فيعلم الناس الخير، والآخر يصوم النهار ويقوم الليل، أيهما أفضل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فضل هذا العالم الذي يصلي المكتوبة، ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذي يصوم النهار ويقوم الليل كفضلي على أدناكم" رواه الدارمي[2].

وأورد القرطبي في تفسير هذه الآية ما رواه البخاري في صحيحه من إدخال عمر بن الخطاب ابن عباس في عداد كبار الصحابة أهل الشورى، فلما اعترض عليه بعض الصحابة تقديمه إياه، سألهم سؤالاً أجاب عنه ابن عباس الإجابة الدالة على سعة علمه التي يستحق بها التقدمة على غيره [3].

---

[1] مشكاة المصابيح: ٧٤/١ ورقمه ٢١٢وحكم عليه الألباني بالحسن.

[2] مشكاة المصابيح: ٣٨/١ ورقمه ٢٥٠ وقال محقق المشكاة العلامة الألباني: "وسنده إلى الحسن البصري صحيح، لكنه مرسل، ويقويه أن له شاهداً موصولاً، تقدم رقم (٢١٣).

[3] تفسير القرطبي: ٣٠٠/١٧.

٦- أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالدعاء بالازدياد من العلم:

قال تعالى آمراً رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعوربه أن يزيده علماً، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

يقول ابن حجر: إن قوله عز وجل: واضح الدلالة في فضل العلم، لأن الله تعالى لم يأمر نبيه بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم [١].

وأثنى الله على عبده لقمان بما آتاه من الحكمة (ولقد آتينا لقمان الحكمة) ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عمه عبد الله بن عباس بأن يعلمه الكتاب، وإن يفقهه في الدين، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: "اللهم علمه الكتاب" [٢].

وفي رواية عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل الخلاء، فوضعت له وضوءاً، قال ألا من وضع هذا"؟ فأخبر، فقال: "اللهم فقهه في الدين" [٣].

وقد رأى الرسول صلى الله عليه وسلم رؤيا تدل على المدى الذي أعطيه من العلم، ففي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما أنا نائم أتيت بقدح من لبن، فشربت حتى لأرى الريء يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب" قالوا: فما اولته يا رسول الله؟ قال: "العلم".

٧- دوام أجر العالم بعد موته.

إذا مات الإنسان توقف عمله وسعيه، فيتوقف بذلك أجره: ويبقى له من الأجر والثواب تلك الأعمال التي يستمر نفعها بعد موت صاحبها، ومنها العلم، فإذا كان هذا العالم علّم الناس العلم، وبقي الناس ينقلون هذا العلم

---

[١] صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ٣٢١/٨ ورقمه: ١٤٣.

[٢] صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٢٢٣/١ ورقمه ٧٥.

[٣] صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ٣٢١/٨ ورقمه: ١٤٣.

عنه، وينتفعون به، أوألف كتباً استمر انتفاع الناس بها، أوسجل أحاديثاً استمر نفعها، فكل ذلك ينفعه بعد موته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة أشياء: صدقة جارية، أوعلم ينتفع به، أوولد صالح يدعوله "رواه مسلم"[1].

الصفة الثانية: الإخلاص في طلب العلم وتعليمه

تعلم العلم الشرعي وتعليمه عبادة، ولا تصح العبادة إلا بالإخلاص، فمن أراد بعلمه وجه الله كان عمله مقبولاً، ومن أراد به الدنيا كان مردوداً، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أوامرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" رواه البخاري ومسلم.

وطالب العلم ومعلمه إذا اراد بعلمه تحصيل العلم الإلهي القرآني، أوما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وتعلم العلم وتعليمه الناس كان تعلمه وتعليمه لله، وإن قصد به الدنيا كأن يتعلم العلم ليشتهر به بين الناس، ويشار إليه بالبنان، وينافس به الأقران، ويباهي به العلماء، أوكان قصده الحصول على الجاه والمال، فإنه قد شاب عمله بما يذهب الإخلاص.

وقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من أن نقصد بعلمنا هذه المقاصد السيئة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة، يعني ريحها" رواه أحمد وأبوداود وابن ماجه[2].

---

[1] مشكاة المصابيح: ١/٧١ورقمه ٢٠٣.

[2] قال الألباني في تعليقه على المشكاة (١/٧٨) ورقم الحديث: (٧٨): "وإسناده صحيح، وصححه الحاكم والذهبي، وقال العراقي، جيد قلت وفيه فليح بن سليمان، وقد توبع في جامع ابن عبد البر.

ومن أشد ما جاء في تعلم العلم رياء وسمعة حديث الثلاثة الذين هم أول من تُسعّر بهم النار يوم القيامة وأحدهم "رجل تعلّم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به (أي في يوم القيامة) فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: أنك عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارىء فقد قيل، ثم أمر به فحسب على وجهه حتى ألقي في النار" رواه مسلم عن أبي هريرة [1].

الصفة الثالثة: تقوى الله

وعد الله عباده أن يعلمهم إذا ما أتقوه، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٢].

قال القرطبي في تفسيره هذه الآية: "وعد الله تعالى بأنّ من اتقاه علّمه، أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما ألقي إليه، وقد يجعل في قلبه ابتداءً فرقاناً، أي فيصلا به بين الحق والباطل" [2].

ونظير هذه الآية أو قريب منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]، قال ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: (ان تتقوا الله) بطاعته، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وترك خيانته، وخيانة رسوله، وخيانة آماناتكم (يجعل لكم فرقاناً) يجعل لكم فصلاً وفرقاً بين حقكم وباطل من يبغيكم بالسوء من أعدائكم المشركين [3].

وأظهر ما يفسر به الفرقان في النص الكريم ما يهبه الله العلماء الأتقياء من نور في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل والخير والشر، وبه يعرف الصواب من المختلف فيه.

---

[1] مشكاة المصابيح: ١/٧١. ورقمه:٢٠٥.

[2] تفسير القرطبي:٣/٤٠٦.

[3] تفسير ابن جرير: ٩/٢٢٦.

العمل بالعلم:

من التقوى أن يعمل العالم بعلمه، فإن لم يعمل بعلمه فلا يكون تقياً، يقول الشاطبي: "كل علم لا يفيد عملاً، فليس في الشرع ما يدل على استحسانه" [1].

وقال: "روح العلم بالعمل" [2].

ونقل الشاطبي عن سفيان الثوري قوله: "إنما يُتعلم العلم ليُتقى به الله، وإنما فُضّل العلم على غيره لأنه يتقى به الله" [3].

ونقل قول معاذ: "اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا" [4].

وقال الشاطبي: "العلم الذي هوالعلم المعتبر شرعاً- أعني الذي مدح الله رسوله صلى الله عليه وسلم على الإطلاق- هوالعلم الباعث على العمل" [5].

وقال أبوا الدرداء: "إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه علمه" [6].

وقال الثوري: "العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل" [7].

الصفة الرابعة: الاستعداد الفطري

فاوت الله بين عباده فيما وهبه لهم من قدرات جسدية وعقلية تفاوتاً عظيماً، وقد ضرب مثلاً للتفاوت العقلي في مجال العلوم بقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أنزل من السماء ماء) أي مطراً (فسالت أودية بقدرها) أي أخذ كل واد بحسبه،

---

[1] الموافقات: ١/٧٣.

[2] الموافقات: ١/٧٥.

[3] الموافقات: ١/٧٧.

[4] الموافقات: ١/٨٠.

[5] الموافقات: ١/٨٩.

[6] الموافقات: ١/٧٩ ذكره الشاطبي حديثا وبن المحقق أن الصواب من القول أنه لم يصح إسناده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحيح أنه من قول أب الدرداء.

[7] الموافقات: ١/١٠٢.

فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهوإشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم، بل يضيق عنها" [1].

وقد دلنا الرسول صلى الله عليه وسلم على التفاوت في القدرات التي تجعل الناس يتفاوتون في الفضل، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "الناس معادن كمعادن الفضة والذهب خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" [2].

فخيار الناس في الجاهلية هم خيارهم في الإسلام إذا فقهوا دينهم، فالمعدن الأصيل تظهر قيمته في كل مكان وزمان، وقد نال قصب السبق في الإسلام أصحاب المواهب الأصلية في الجاهلية عندما دخلوا فيه كأبي بكر، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وحمزة بن عبد المطلب، وغيرهم كثير.

وضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً لتفاوت الناس تجاه الهدى والعلم الذي بعث به، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت طائفة قبلت الماء، فأنبتت الماء والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا منها، وسقوا ورعوا. فأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله عز وجل، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلَّم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" رواه البخاري ومسلم[3].

---

[1] تفسير ابن كثير: ٨١/٤.

[2] صحيح مسلم بشرح النووي: ١٤١/١٦ ورقمه ٢٦٣٨.

[3] جامع الأصول لابن الأثير: ٢٨٤/١ورقمه: ٧٠.

وقد قسّم الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث النـــاس تجـــاه الخـــير العظيم الذي بعثه به والذي شبهه بالغيث العام إلى قسمين:

الأول: الذين تقبلوا هذا الهدى، وانتفعوا به، وهذان قسمان:

١ - الذين فقهوا مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليـــه وســـلم، فعلمـــوا وعملـــوا وهؤلاء هم الطائفة الطيبة التي قبلت الماء، وأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

٢ - الذين تقبلوا هدى الله تعالى، ولكنهم ليسوا بأهل فقـــه، لقـــد أوتـــوا قـــدرة الحفظ، فكان مثلهم مثل الأرض التي لا تصلح للزرع، ولا تنبت الكلأ، ولكنـــها تمسك الماء وتحفظه، فإذا ما احتاج الناس الماء استخرجوه من تلـــك الأجـــادب، فيشربون منه ويسقون ويزرعون.

الثاني: الذين رفضوا الهدى والعلم الذي بعث الله به رسوله صلـــى الله عليـــه وسلم، وقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً لهم بالقيعان التي لا تمسك مـــاء، ولا تنبت كلأ، وفيهم قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ومثل من لم يرفع بذلـــك رأساً و لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به".

والطائفة الأولى المحمودة تفاوتت فيما وهبه الله لها من قدرات، فقســـم منـــها وهوالأفضل هم الذين أوتوا القدرة على فقه ما أنزله تبارك وتعالى، فيعرفون مـــراد الله من كلامه، ومراد الرسول صلى الله عليه وسلم، ويحسنون الاســـتدلال بـــالنصوص على الوقائع، واستنباط الأحكام من النصوص، والقسم الآخر لديـــه القـــدرة علـــى الحفظ ونقل محفوظهم إلى غيرهم، وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذيـــن النوعين بقوله: "نضّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها، فرب حامل فقـــه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هوافقه منه"[1] رواه الشافعي والبيهقي والـــترمذي وأحمد وأبوداود وابن ماجه والدارمي.

---

[1] مشكاة المصابيح: ٧٨/١ ورقمه ٢٢٨، ٢٢٩ وذكر محقق المشكاة الشيخ الألباني أن إسناده عند الشافعي وأحمد صحيحان، وأن الحافظ ابن حجر صحح إسناده وإنه لم يجد الحديث في سنن أبي داود.

وفي السنن عند الترمذي عن ابن مسعود قال سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "نضرَّ الله امرءً سمع منَّا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع" [1].

ومن هنا فإنه يجب اكتشاف الطاقات العلمية، وتوجيهها إلى ما يمكن أن يبدع فيه، فقد شاهدنا من اتجه إلى دراسة بعض العلوم فقصر، و لم يستطع أن يتقدم خطوة إلى الأمام، فلما أنتقل إلى علم آخر انطلق فيه كالريح العاصف، وبزّ أقرانه، وجاء بالعجب العجاب.

الصفة الخامسة: تكوين الملكة العلمية الفقهية

الغاية التي ينبغي أن يبلغها الناهون في كل علم يقصدونه هي تكوين الملكة العلمية، وعلم الفقه من العلوم التي لا يكون طالب العلم عالماً بحق إلا إذا تكونت عنده هذه الملكة.

يقول ابن خلدون: "الحذق في العلم، والتفنن فيه، والاستيلاء عليه، إنما هوبحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائلة واستنباط فروعه من أصوله، ما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلاً" [2].

وهذه الملكة غير الفهم والوعي، لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركاً بين من شدا في ذلك الفن، وبين من هومبتدىء فيه، وبين العامي الذي لم يحصل علماً، وبين العالم النحرير، والملكة إنما هي للعالم أوالشادي في الفنون دون من سواهما فدل هذا أن هذه الملكة غير الفهم والوعي.

والملكة الفقهية تتكون بالتمرس بإدامة النظر في نصوص الكتاب والسنة، وكيفية استخلاص الأحكام من أدلة الفقه، والتمرس بإعمال العقل في قواعد الفقه

---

[1] مشكاة المصابيح: ١/٧٨. ورقمه ٢٣٠.

[2] المقدمة: ابن خلدون ص٧٧٠.

وأصوله، والتأمل في اجتهادات أهل العلم، فحري بمن سار هذه المسار أن تتكون لديه الملكة الفقهية، وخاصة إذا كان يجالس العلماء، ويخالط الفقهاء، ويدرس الفقه على الذين أحاطوا به علماً.

والملكة التي يتحدث عنها ابن خلدون تتأتى بالمران بالنظر والاستدلال والحجاج في مسائل العلم الذي يقصده، فإذا لم يكن طالب العلم فاعلا في دراسته لذلك العلم فإنه لن تتشكل لديه الملكة العلمية، يقول ابن خلدون: "أيسر طرق هذه الملكة قوة اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهوالذي يقرب شأنها ويحصل مرامها [1].

وأنحى ابن خلدون باللائمة على طلبة العلم غير الفاعلين في مجالس العلم، فتراهم يلازمونها سكوتاً لا ينطقون، ولا يفاوضون، وكل عنايتهم متجهة إلى الحفظ، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم" [2].

الصفة السادسة: أخذ العلم عن الشيوخ الذين نبغوا في العلم

الرسول صلى الله عليه وسلم علّمه ربّه، وأرسل له جبريل فعلمه، والصحابة أخذوا علمهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخذ التابعون علمهم عن الصحابة حتى فقهوا، ونالوا القمة في العلم، وقد كان طلبة العلم في أخذهم العلم عن أهله يقتدون بمن يأخذون عنهم ويتأسون بهم.

والأخذ عن أهل العلم له طريقان:

الأول: المشافهة، ولها مزية على الطريقة الثانية التي هي أخذه عن الكتاب، يقول الشاطبي: "للمشافهة خاصة جعلها الله تعالى بين العالم والمتعلم، يشهدها كل من زاول العلم والعلماء، فكم من مسألة يقرؤها المتعلم في كتاب، ويحفظها، ويرددها على قلبه، فلا يفقهها، فإذا ألقاها إليه المعلم فهمها بغتة، وحصل له العلم

---

[1] المقدمة. ابن خلدون: ص٧٧٣.

[2] المصدر السابق.

بها بالحضرة. وهذا الفهم يحصل بأمر غير عادي من قرائن أحوال، وإيضاح موضع إشكال لم يخطر للمتعلم ببال، وقد يحصل بأمر غير معتاد، ولكن بأمر يهبه الله للمتعلم عند مثوله بين يدي المعلم"[1].

الطريق الثاني: مطالعة كتب المصنفين ومدوني الدواوين، وهونافع كما يقول الشاطبي بشرطين:

١ - أن يحصل له فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب، ومعرفة اصطلاحات أهله.

٢ - أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد؛ فإنه أقصد به من غيرهم من المتأخرين"[2].

---

[1] الموافقات: ١/١٤٥.

[2] الموافقات: ١/١٤٧.

المبحث الثالث

النقائص والعيوب

سأتناول في هذا المبحث بعض النقائص والعيوب التي يجب أن يبتعد عنها علماء الفقه وطلابه، فإنها آفات تمرض من تصيبهم وتذهب نور الحق من قلوبهم.

أولاً: التقليد:

التقليد: الرجوع إلى قول لا حجُّة لقائله عليه، فالمقلد يعتبر قول إمامه حجّة مطلقة، سواءً أكانت أقواله صواباً موافقة للسنة، أوخطأ جاءت الآيات والأحاديث بضدها"[1].

والدعوة إلى التقليد دعوة إلى الجمود الذي يجعل الناس صماً وبكماً وعمياً لا يفقهون، ودعاة التقليد يريدون أن يحجروا على القرائح أن تجول في مواطن الاستدلال والتنقيب عن الدليل، وهذا يعطل المواهب البشرية التي منحها الله للإنسان للنظر والاعتبار والتفكر، وغاية هذه الدعوة حصر الشريعة في المذهب الذي يتمذهب به المقلد.

قال صاحب مراقي السعود:

"من لم يكن مجتهداً فالعمل منه بمعنى النص مما يحظر" وقد شرح الناظم بيته هذا في كتابه "نشر البنود" فقال: "يعني أن غير المجتهد يحظر له، أي يمنع أن يعمل بمعنى النص من كتاب وسنة، وأن صح سندها، لاحتمال عوارضه من نسخ وتقييد وتخصيص، وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد، فلا يخلصه من الله إلا تقليد المجتهد. قاله القرافي[2].

---

[1] راجح: أعلام الموقعين: ١٧٩/٢جامع بيان العلم: ١٤٣/٢ المستصفى للغزالي:٣٨٧/٢.

[2] أضواء البيان: ٤٢٣/٧.

وقصر جمع من المقلدين وجوب التقليد على واحدٍ من الأئمة دون غيرهم، ففي جوهرة التوحيد" وواجب تقليد حبر منهم" أي من الأئمة الأربعة، وقال الباجوري في حواشيه على الجوهرة: "لا يجوز تقليد غيرهم، ولو كانوا من الصحابة"[1].

ومن الذين أوجبوا التقليد ابن الصلاح[2] والأسنوي وابن مرجان[3]، وزعم بعض الحنفية أن المهدي وعيسى ابن مريم في آخر الزمان يحكمان بمذهب أبي حنفية[4].

وزعم الكرخي من الحنفية أن: "كل آية تخالف ما عليه أصحابه، فهي مؤولة أومنسوخة، وكل حديث كذلك فهومؤول أومنسوخ[5]، وقال ابن الصلاح في مقلد المذهب: "نص مذهب إمامه في حقه كنص الشارع في حق المجتهد المستقل"[6].

وقال الشعراني: "قال بعض المقلدين: لووجدت حديثاً في البخاري ومسلم لم يأخذ به إمامي لا أعمل به"[7].

وجاوز الصاوي حدّه وعلا علواً عظيماً عندما زعم: "أنه لا يجوز تقليد ما عدا الأربعة، ولووافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية، فالخارج عن المذاهب الأربعة ضال مضل، وربما أداه ذلك إلى الكفر، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر"[8].

---

[1] عمدة التحقيق: ص٨٥.

[2] المصدر السابق.

[3] التمهيد للأسنوي.

[4] حاشية ابن عابدين: ١/٣٩.

[5] أصول الكرخي: ص٨٤.

[6] المجموع للنووي: ١/٤٥.

[7] الميزان: ١/١٠.

[8] حاشية لأحمد الصاوي: انظر كلامه على قوله تعالى: {الكهف:٢٣-٢٤}

وهذه الدعوى دعوى باطلة مرفوضة، وقد بسطت القول في بيان بطلانهـــا في كتابي: "المدخل إلى دراسة المدارس المذاهب الفقهية[1].

وسأشير هنا إلى الدلائل على بطلان هذه الدعوى إشارة سريعة:

أولاً: لا دليل يدل على وجوب التقليد، بل الأدلة على وجـــوب النظـــر في الكتاب والسنة كثيرة وافرة، وقد أجمعت عليها الأمة في القرون الثلاثة الفاضلة.

ثانياً: هذه الدعوة بدعة قبيحة حدثت في الأمة لم يقل بها أحد من الصحابـــة ولا علماء التابعين ولا أحد من الأئمة.

ثالثاً: إيجاب التقليد أدى إلى هجران الكتاب والسنة، فالمقلدون يزعمون أنـــه لا يحل النظر في الكتاب والسنة إلا للمجتهد، ثم يدعون أنه لا يوجـــد مجتـــهد بعـــد القرن الرابع.

رابعاً: دعواهم أن العمل بالكتاب والسنة وقف على المجتهدين دون غـــيرهم زعم باطل، فهناك أحكام كثيرة في الكتاب والسنة منصـــوص عليـــها صراحـــة، ولا دخل للاجتهاد فيها، فالاجتهاد إنما يعمل فيما لا نص فيه، أوفيما فيدلالة النصـــوص عليه خلاف، أما المنصوص عليه صراحة فلا أجتهاد فيه ألبتة.

وقد أجمع أهل العلم على أن شرط العمل بالكتاب والســـنة شـــرط واحـــد هوالعلم بحكم ما يعمل به منهما، وما اشترطوه من شروط الاجتهاد محل نظر، وهـــذا يحتاج إلى مزيد بيان وتوضيح.

خامساً: هذه الدعوى مخالفة لما ثبت عن الأئمة وأصحابهم وأعلامـــهم وقـــد صحت أقوال كثيرة عن الأئمة توجب العمل بالكتاب والسنة، وتمنـــع مـــن الأخـــذ بأقوالهم إذا خالفت نصوص الكتاب والسنة.

---

[1] انظر المدارس والمذاهب الفقهية ١٧٨.

ثانياً: القول على الله بغير علم

القول على الله بغير علم جريمة نكراء، يقول ابن القيم: "حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فرتّب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها، وهوالفواحش، ثم ثنى بما هوأشد منه، وهوالأثم والظلم، ثم ثلث بما هوأعظم تحريماً منهما، وهوالشرك به سبحانه، ثم ربّع بما هوأشدّ تحريماً من ذلك كله، وهوالقول عليه بغير علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال، وهذا حرام إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه.

وقال بعض السلف: "ليتق أحدكم ان يقول أحل الله كذا وحرم كذا، فيقول الله له: كذبت، لم أحل كذا،....وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أميره بريدة أن ينزل عدوه إذا حاصرهم على حكم الله وقال: "فإنك لا تدري تصيب حكم الله فيهم أم لا، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك" فتأمل كيف فرق بين حكم الله وحكم الأمير المجتهد، ونهى أن يسمى حكم المجتهدين حكم الله.

ومن هذا لما كتب الكاتب بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حكماً. فقال: هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال: لا تقل هكذا، ولكن قل: هذا ما رأى أمير عمر بن الخطاب"[1].

ومن هنا كان الراسخون في العلم يقولون عندما يسألون عما لا يعلمون: لا نعلم، ويستسهلون ذلك، قال محمد بن عجلان: إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله، ونحوه عن ابن عباس، وسئل القاسم بن محمد بن أبي بكر عن شيء، فقال: لا أحسنه، فقال السائل: إني جئت إليك، لا أعرف غيرك، فقال القاسم: تنظر إلى طول لحيتي، وكثرة الناس حولي، والله ما أحسنه. فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي الزمها، فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم. فقال القاسم: والله لأن يقطع لساني أحب إلي من أن أتكلم بما لا علم لي.

وقال سفيان بن عينيه وسحنون بن سعيد صاحب المدونة أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً.

وسأل رجل مالك بن أنس أياماً عن شيء، فقال: إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه، وقال الهيثم بن جميل: شهدت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في أثنتين وثلاثين منها: لا أدري.

وسئل مالك عن مسألة، فقال: لا أدري فقيل له: أنها مسألة سهلة، فغضب، وقال: ليس في العلم خفيف، أما سمعت قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة [2].

وقال أبوداود: سمعت أحمد يقول: ما رأيت مثل ابن عيينة في الفتوى ولا أحسن فتيا منه، كان أهون عليه أن يقول: لا أدري.

---

[1] أعلام الموقعين:/١٣٩.

[2] صفة الفتوى لابن حمدان:٦-٧.

وقال عبد الله ابنه في مسائله: سمعت أبي يقول: قال عبد الرحمن ابن مـــهدي: سأل رجل من أهل المغرب مالك ابن أنس عن مسألة فقال: لا أدري فقال يـــا أبـــا عبد الله، تقول لا أدري؟ قال: نعم، فأبلغ من وراءَ ك لا أدري[1].

[1] المدخل لابن بدران: ص٤٤.